حركة القرامطة:

أ –ظهور قرامطة العراق والشام:

اختلف المؤرخون في نشأة هذه الحركة وموطن انطلاقها الاول . ثم اختلفوا حول مؤسسها ومتى كانت وما يعرف عنهم هو أنهم طائفة من طوائف الإسماعيلية . دانوا بالمذهب على يد دعاة المذهب الاسماعيلي .لم يجتمع راي المؤرخين حول هذه التسميه ويذكر الطبري عن ظهور القرامطة ، ان ابتداء امرهم كان على يد رجل قادم من بلدة خوزستان الى سواد الكوفة ونزل في موضع يقال له النهرين ، وانه عرف باسم كرميته لأسباب اختلف حولها المؤرخون و هنا تظاهر بالزهد والورع والتقشف وحدث اصحابه عن ذلك وعلى الصلاة وفرائضها ثم أعلمهم انه يدعو الى امام من اهل البيت. فالتف حوله جمع كبير من الناس ، اتخذ منهم اثنى عشر نقيبا ،امرهم ان يدعو الناس الى دينهم.

وقد استرعى نشاطه هذا انتباه رجل اسمه الهيصمن من كبار الملاك ،فسعى للقضاء على الحركة في المهد ففشل وفي هذه الآونة كانت ثورة الزنج قائمة و نشيطة في منطقة البصرة ، فذهب قرمط الى صاحب الزنج فناظره ولما وجد اراءه تختلف عن ارائه تركه وانصرف ويقال بانه خرج الى الشام فلم يعرف له خبر.

واذا اردنا ان نحلل اسباب ظهور القرامطة في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) لوجدناها متشابهة ما اسباب قيام حركة الزنج وتعود الى سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة.

استغل حمدان قرمط الفئات المتضررة من سوء الاوضاع غاية الاستغلال ونادى بمبادئ تقبلها . قام اولا بنشر الدعوة الاسماعيلية في سواد العراق واعتمد على صهره عبدان الذي كان اكبر من نشر الدعوة. و صادفت الدعوة الاسماعيلية على يد عبدان كثيرا من النجاح حتى انا ابا سعيد الجنابي مؤسس دولة القرامطة في البحرين وزكرويه بن مهرويه زعيم القرامطة شمالي غربي بلاد العراق و بادية السماوة قد اخذا عنه.

لقد حدث صراع بين زعماء القرامطة في العراق حول رئاسة الطائفة بعد حمدان قرمط ففي حين كان عبدان عقل القرامطة المفكر ،كان ال زكرويه يشعرون باصالتهم في الدعوة وانتهت المنافسة لصالح زكرويه وقتل عبدان . تلقى القرامطة في اثناء.زعامة زكرويه ضربات متتالية من الخلافة العباسية في العراق منها تلك الضربه التي وجهت اليهم في نواحي الكوفة سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م . وعلى الرغم من ذلك فلم يكف القرامطة عن نشاطهم ، وزاد انتشارهم بشكل واضح في سواد الكوفة . الا ان الخليفة المعتضد كان قد عقد عزمه على استئصال شأنهم في هذه المنطقة. فوجه اليهم حملات تمكنت من قتل اعداد كبيرة منهم.

فكر زكروية بن مهرويه بتوجيه نشاط القرامطة الى بلاد الشام ليوسع منطقه دعوته وليضم عناصر جديدة اليها مستفيدا من التفكك السياسي فيها . ولمعرفه اهل الشام بالدعوة الإسماعيلية التي كانت تسربت اليهم بشكل عام من مدينة سلمية ولحمل المهدي على الموافقة علي توليتهم (ال زكرويه) لرئاسة الدعوة.

اسند القرامطة في الشام رئاستهم في بادئ الأمر الى يحيى بن زكرويه المعروف (بالشيخ) فاخذ يدعو الى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وتظاهر بالقدرة على اتيان المعجزات . وقد استهوت ادعاءاته بن العليص فخذ من كلب وكذلك جماعات كثيرة بجوار دمشق.

اشتد أمر القرامطة بعهده في بادية الشام واخذو يفسدون في المناطق والقرى التي حولهم فنهضت القوى الإسلامية المسؤولة للدفاع عن الشام كالطولونيون و ولاتهم ففشلوا في ذلك على الرغم من قتلهم ليحيى زعيم القرامطة على ابواب دمشق ثم تولى الخليفة المكتفي هذا الأمر ،وأرسل الجيوش الواحد تلو الاخر حتى تمكن من الانتصار على القرامطة . فأسر أعداد كبيرة منهم ، كما أسر الحسين بن زكرويه ، وفر من بقي الى البادية . على هذا الشكل ضعف أمر القرامطة في الشام لقتل اكثر زعمائهم واستئمان البعض الاخر . الا ان زكرويه الذي كان مختبئا واصل تحركه ضد العباسيين وبعثه بدعاته الى بلاد الشام ثانية . حيث تركزوا في صحراء السماوة، وهاجموا مدن الاردن ونهبوا هيت على الفرات ، وهاجموا الكوفة و نهبوا قوافل الحجاج وفتكوا فيها . واستمروا في نشر الذعر والرعب بين السكان حتى سنه (٢٩٤ هـ/ ٩٠٦ م)حيث قضت عليهم جيوش العباسيين .

ب _قرامطة البحرين

كان ابتداء أمر القرامطة في البحرين ان رجلا يعرف بيحيى بن المهدي قصد القطيف فنزل على رجل يعرف (علي بن المعلى) فأظهر له يحيى انه رسول المهدي، وذكر انه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى امره وان ظهوره قد قرب فأخبر علي بن المعلى الشيعة من اهل القطيف بالامر ، وقرأ عليهم الكتاب الذي مع يحيى فاجابوه واعلموه بانهم خارجون معه اذا ظهر امره .

و وجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه وكان في من اجابه أبو سعيد الجنابي (الحسن بن بهرام) الذي تسلم رئاسة الدعوة و اخذه يعمل على نشرها في البحرين منذ سنه (٢٨٣ هـ/٨٩١ م) وقد وجدت تعليمه مرعي خصيبا لدى الاهالي ، وعلى الاخص الاعراب الذين كانوا دائما على استعداد للانضمام الى اي حركة ثورية ما دامت تبيح لهم فرصة السلب والنهب . واتخذ الجنابي مدينة الاحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التي اسسها سنة ٢٨٦ هـ . واستطاعت هذه الدولة القرمطية من بسط سلطانها على كثير

من ارجاء جزيرةالعرب ففتح اليمامة وتطاول الى عمان ولما طمع بدخول مدينة البصرة اصطدم مع قوات الخليفة العباسي المعتمد سنة (٢٨٧ هـ/٩٠٠ م) وانتصر عليها كان الحكم وراثيا في أسرة أبو سعيد يعاونه مجلس يتكون من ١٢عضوا .وكما وضع ابو سعيد نظاما حربيا دقيقا لدولته استطاع بمقتضاه اعداد جيش قوي من الرعية . فقد جمع الاطفال في دور خاصة وعين لهم جماعة تشرف على مصالحهم . واجرى عليهم ما يحتاجون اليه واخذ يدربهم على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الحربية فنشأوا نشأة عسكرية.

اصطدم ابو سعيد نتيجه لمطامعة التوسعية في جزيرة العرب وغيرها مع علماء العباسيين وجرت بينهما حروب متعدده تمكن ابو سعيد اثرها من بسط نفوذه على معظم أرجاء جزيرة العرب . وما لبث ان اغتيل سنة ٣٠٢هجرية على يد خادم له كان قد ضمه الى جيشه من الجيش العباسي بعد ان وثق به وخلفه ابنه سعيد الذي ظل يدير امور دولة القرامطة حتى ثورة ابي طاهر سليمان اخيه الاصغر الذي قتله ، وتقلد زمام الحكم في دولة القرامطة .

حصل ابو طاهر علي كتاب توليته من عبيد الله المهدي ، مما يثبت لنا ولاء القرامطة في البحرين للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ويزيد هذا الأمر رسوخا اتحاد الطرفين في سياسة العداء إزاء العباسيين فقد عمل ابو طاهر على اشغال العباسيين في الشرق بحملاته التي وجهها الى بلادهم ، حتى يتيح للمهدي توطيد نفوذه في المغرب. فهاجم البصرة والكوفة مرات متعدده وكاد في سنة (٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م) أن يدخل بغداد. كما انه قام في العام التالي بحملة جريئة فأغار على مكة في ذي الحجه سنة ٣١٧ هـ في عدد من اصحابه وغايته اظهار الخليفة العباسي بمظهر العاجز عن حماية الاماكن المقدسة . فنهب الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام ، كما انه قلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الاسود وأخذ كسوة الكعبة ففرقها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة وخطب للمهدي .وفرض على الحجاج اتاوة يؤدونها إليه مقابل حمايتهم ثم عاد الى الاحساء حاملا معه الحجر الاسود.

حافظ القرامطة طوال نصف الاول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي على علاقتهم الودية مع الفاطميين في بلاد المغرب. وكان تعيين امراء القرامطة يتم بعد موافقة الخليفة الفاطمي . وكان لتعاون القرامطة والفاطميين في نشر آراء المذهب الاسماعيلي اكبر الاثر في صعود نجم العلويين بالقرن الرابع الهجري. على حين بدا أمر العباسيين بالضعف وبسط الفاطميون سلطانهم على مصر والشام و كثير من أنحاء جزيرة العرب.

رتب القرامطة نظاما ماليا اشتراكيا ساعد على نجاح هذه الحركة فكان من مبادئ القرامطة أن يؤدي أفرادها ضرائب محددة عينية في كل سنة . ثم يدفع هؤلاء خمس ما كانوا يكسبون او يملكون ويبدو انهم تنازلوا عن خمس ما يملكون ثم دفعوا خمس ما يكسبون ويقال بأن أهل القرى كانوا يحملون ما يملكون فإذا جمع مشاعا بين الاعضاء وتولى توزيعه رجل من بينهم يثقون به . اذا اوضح قرمط لأصحابه أنهم لا حاجة بهم الى الاموال لأن الأرض بأسرها ستكون لهم.

كان القرامطه لا يقرون بوجود طبقات متميزة وأخرى محرومة في المجتمع فأفراد أسرة أبي طاهر الجنابي لم يكونوا يمتازون عن غيرهم من الوزراء وأعضاء المجلس الاداري المعروف عندهم بالعقدانية الا في قيادة الجيش ورئاسة مجلس الوزراء والاشراف على بعض الاعمال مما كانت تقتضيه ضرورة التنظيم وحسن الإدارة وكانت السلطات من تشريع وادارة وتنفيذ محصورة في اعضاء مجلس العقدانية المؤلف من ستة أفراد يختارهم الشعب . وكان لهؤلاء وكلاء يساعدونهم و ينوبون عنهم .

اما عن ملكية الأرض فلا تتوفر معلومات عما الت اليه و من المرجح ان القرامطة لم يلجأوا الى نزع الاراضي من أيدي اصحابها و كان هؤلاء يقرضوا صاحب كل حرفة مايحتاجه من المال حتى يشتغل و يجمع من المال ما يكفيه ويكفي اسرته . كما كانت الحكومة تقدم المساعدات لمن تحل بهم مصيبة او كارثة ، وقد ضرب القرامطة نقودا خاصة بهم في البحرين من الرصاص لم تكن متداولة إلا في منطقتهم ومن المرجح انها سكت من الرصاص كي لا يطمع أحد بجمعها واخراجها .

وقد أسهمت المرأة في المجتمع القرمطي في تحمل الاعباء المالية التي يطلبها بناء المجتمع وأدت الضرائب مع الرجل وكما قدم الرجل خمس ما يملكه قدمت المرأة خمس ما تغزل ، وحين يدعو الأمر للتبرع تسارع النسوة بتقديم ما يملكن من حلي و متاع ، من مايحصلن عليه ويتكسبنه من الاشتغال بالغزل.

ويبدو ان المراة اخذت حقها في التنظيم القرمطي واخذت حريتها كاملة . ولا رقيب عليها غير المصلحة العامة وبالتالي نجد ما قيل عن الاباحية في التنظيم القرمطي لا يمكن الاخذ به . لما تمتعت به المرأة من الاحترام في ذلك المجتمع ولما عرف عن قوة الرابطة الزوجية . ومن أهم ما جاء للمرأة في قوانين القرامطة تحديد الزواج بواحدة والغاء المهر وحق المرأة في العمل وفي التعليم وفي الطلاق وفي رفض الزواج بتاتا ، واعفاء المرأة من الاعمال الشاقة ومنها طحن الحبوب واستخدام القرامطة كتعويض لذلك مطاحن تدور بقوة الماء جعلت مجانية وذلك لتخفيف الاعباء عن النساء.

وهكذا فانه من خلال دراستنا للحياة الاجتماعية في المجتمع القرامطي ندرك بأن حياة القرامطة في هذا المجال كانت متقدمة ويبدو كما اوضح الدكتور الدوري في كتابه تاريخ العراق الاقتصادي ان هذا التقدم